

قصص من سيرة شهداء المقاومة الإسلاميّة

قصة الشهيد المجاهد علي غالب ياسين

بقلم: نسرين إدريس قازان

باسم رب الشهداء

اسمُه عليّ

في الحديث عن الإمام الصّادق عليه السلام: «مَن أرادَ اللهُ بهِ الخيرَ قَذَفَ في قلبِه حُبَّ الحسين عليه السلام». ومِن قلبِه الصّغير السّابح بالأمنيات، اكتشف عليّ العالم مِن حوله. قلوبُنا لها عيون، أَبصِروا بها...

كانَ عليّ صغيرًا يعيشُ في رَغَد دلال جدّته لأمّه. عالمُ الجدّة المليء بالسِّحر، فما إن يذهب والدَيه إلى العمل وأخوه إلى المدرسة، حتّى يتربّع على عرش الأوامر، ولم تعرف جدّته طريقًا لردّ طلبه، حتّى لمّا تمنى اللّعب بالتّراب ذات يوم. ولم يكن في منطقة الرّويس في الضّاحية الجنوبيّة أيّ بورة قريبة من بيتها. حملتهُ وألعابَ الجرفِ، وبحثتْ عن أرضٍ لعبَ فيها حتّى شبع...

هوَ كثيرُ الأسئلة وفنانُ اكتشافات، ولكنّ أكثر ما أثار تساؤلَه، ذلك الموسم المتّشح بالسّواد، وتلك الأيّام الحزينة، إذ، فجأة، تلبِسه جدّتُه ويلبس أهلُه وأقاربه الثيابَ السَوداء أسوةً بالنّاس، وهوَ ينظرُ من حولِه: لماذا هذا الالتزام بالحزن من الجميع؟! حتّى من أقاربه؟ في الواقع لا ينتمي عليّ لعائلة ملتزمة، ولكنها عائلة مقاومة، قدّمت عمّه الشّاب (جعفر) شهيدًا في المقاومة الوطنيّة وهوَ في مقتبَل العمر، ففهِم أنّ أيّام عاشوراء ليست لبيئة محدّدة، بل للناس جميعًا...

«الحسين» اسمٌ كأنّه ريحٌ تهزّ جذع روح عليّ، فتساقط منه كلّ دمعٍ حزنًا على ذلك المُصاب، ورسخ في مخيّلته مشهد التّسابق للمشاركة بالوقوف ولو قليلاً أمامَ قِدْر كبير يتحلّقُ من حولِه الكثير من الناس، يتسابقون لحملِ ملعقةٍ كبيرة ليحرّكوا «الهريسة» وهم يتمتمون ما في قلوبهم... هل انتبهتم يومًا أنّ هذا القِدر بركة أمنيات؟

كبُرَ عليّ على هذا المشهد المتكرّر سنويًّا، ولمّا تُوفيتْ جدّته وخَبا سحر الحياة، اجتمعَ النّاس لوادعِها، كان مجلس العزاء يخترقُ روحه؛ حتّى عندما نودّع أحبابَنا نبكي الحسين عليه السلام...

انتظرَ عليّ كثيرًا أن يأتي ذلك اليوم الذي يقفُ فيه مع الواقفين حول قِدر «الهريسة»، يحرّك، ويسكبُ ويوزّع، ويشارك بقراءة الأذكار، وكلّما شارك بذلك أورقَ حُبّ الحسين في قلبه.

عندما الْتحق بالدّورات العسكريّة، لم يعارِضْه أحدٌ من أهله، فهو صبيٌّ مجتهدٌ في مدرسته، مهذّب بين الناس، اختار طريق المقاومة عن وعيٍ وحكمة وحُب، فمَن لا يُحبّ الحسين لا يمكنه أن يسكن المحاور. حبُّ الحسين يعني أن تقف أمامه وهو يأذنُ لكَ بالرّحيل فتبقى، وتسقط عليكَ السهامُ ولا تسقُط، وأن تقاتلَ حتّى تذرفَ دَمَكَ فوق الرّمال.

هذا ما كان يراه عليّ كلّما هلّ هلالُ شهر محرم، موسم الهجرة إلى كربلاء، ولمْ يؤخّره شيءٌ عن الخدمة في الموائد، فقد كان ينظّمُ وقتَه للمساعدة في ذلك، ودائمًا يبحثُ عمّا يمكن أن يقرّبه من الإمام الحسين عليه السلام، غير عابئٍ بما يكون، توزيع طعام، أو ضبّ الكراسي، أو جمع المحارم الورقيّة عن الأرض، أو أيّ شيء، فالخدمة ظاهرها بسيط وباطنها عظيم.

وفي ذات محرم، لم يحضر عليّ المجالس العاشورائيّة، افتقد الرّفاق عليًّا وهم يحرّكون القِدر، أينَ الشابُ فارعُ الطّول، جميلُ الوجه، المبتسمُ العينينِ خلف نظّارتين تضفيان على وجهه ملامحَ الطّفولة؟ كان قد كبُر وأنهى بنجاحٍ سنتَه الأخيرةَ في كلّيّة الهندسة، وبقيَ أن ينتظرَ حفل التّخرّج ليتسلم شهادته، وأيضًا كان قد اتّفق مع والدَيه على تجهيز نفسيهما لخطبة الفتاة الّتي أحبّ الارتباط بها، أمّا راتبه من عمله في شركة أخيه، فأخذه كعادته واجتزأ منه مبلغًا أوصله إلى فتى يتيم كفِلَه منذ سنوات، وكان يدّخر أحيانًا من مصروفِه لأجل ذلك؛ سألوا عنه فلم يجدوه.

كان عليّ في ذلك المحرّم، في باديةٍ بعيدة، تشبه إلى حدّ ما بادية كربلاء... فيها خيامٌ مليئة بالعتاد، وشبابٌ مجاهدون، جمعتهم أيّام محرّم مرابطين في الثغور، الشمس لاهبة، وغبار الرّمال يُعمي العيون، وحلقة من اللّطم تحيي ما في القلب من رميم. قلبُ عليّ عاشق الحسين، كلّما خبط يدَه على صدره شعرَ باسم الحسين ينبض... مرت أيّام، وحان وقت العودة من الجهاد، جلسوا بانتظار الحافلة وهم يلطمون، ابتسم عليّ، فلا شك بأن أمّه الحنون مربكة فيما تحضره له من طعام يحبّه، ولا ريب أن خطيبته بانتظار عودته، ولكنّ صوتَ الرّصاص جعلَه يلتفتُ سريعًا...

يا الله! إنّه اليوم التّاسع من المحرّم، هبّوا يا أنصار أبي عبد الله!

كان الهجومُ من داعش قويًّا ومباغتًا، ولكنّ صلابة المجاهدين جعلتهم ينكفئون إلى الخلف.

هَدَأَ الرّصاصُ وانكشفَ الغُبار... كانَ فوق الرّمال شابٌ فارع الطّول، مبتسم العينين، عشِقَ منذُ صِغَرِهِ الحسين، اسمه: عليّ. ”

